مساجد الزوايا والأضرحة بالجزائر

منطقة تكوت بالأوراس عينة

أ. سليم درنوني
جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

الملخص :

يخضع الوجود الضخم للمساجد في الجزائر ومختلف أقطار الدول المغاربية، إلى تعددية وتراتبية واضحتين، وإذا ما استعرنا القاموس الاجتماعي الغير رسمي للتمييز بين هذه المساجد، فإننا سنميز بين مساجد الزوايا والأضرحة التي تمتلكها الأسر الشريفة والمرابطية ذات الزعامة الدينية التقليدية على الأقل محليا، تعرف لدى الناس "بأولاد الشريف" أو "أولاد الزاوية" أو "إمبرابظن" أو "المرابطين". أما النوع الثاني فنستطيع أن نسميه مساجد المحسنين التي تسربت إليها الاديولوجيات الإسلامية الراديكالية التي ساهمت إلى حد بعيد في إحداث تحولات جذرية في بعض الأحيان سواء على مستوى الممارسات التعبدية والوظائف الاجتماعية للمسجد أو على مستوى الهندسة المعمارية لهذه المؤسسة الاجتماعية وخلفيتها الثقافية. في حين حافظت مساجد الزوايا والأضرحة على ذلك على الرغم من وجود بعض التحولات الناتجة عن المؤثرات الثقافية الجديدة الواردة بوسائل مباشرة أو غير مباشرة.

تبرز أهمية دراسة موضوع "مساجد الزوايا والأضرحة" في المجال المحدد، للتعرّف إلى تاريخها ونشأتها وتطورها وإلقاء الضوء على ماضيها وحاضرها، باعتبارها دعامة من دعامات الحضارة الإنسانية، وقطاعا واسعا من العمارة والثقافة الدينية، ومصدراً من مصادر التغير والتحول الاجتماعيين، ودراسة هذه المؤسسات تعني دراسة ثقافة تتميز بالطاقة الوثابة المتجددة، وتعني في الواقع الامتداد والأصالة.

هذا البحث ما هو إلا محاولة لتتبع تطور عمارة مساجد الزوايا والأضرحة، والتحولات الوظيفية التي شهدتها هذه المؤسسات التي تشكل في جانب منها تراثا رمزيا في الأوراس على الأقل على امتداد الثلاثة قرون الماضية، واستقصاء العوامل التاريخية والاقتصادية والبيئية التي ساهمت في هذا التطور والتحول.

Résumé

Sous réserve de la présence massive de mosquées en Algérie et en différents pays Maghrébine, du pluralisme et de la hiérarchie sont de plus clair, et d'emprunter le dictionnaire sociale officieuse de faire la distinction entre ces mosquées, nous distinguons entre les mosquées des zaouiyas et de sanctuaires appartenant à des familles honorables et Almoravid avec les chefs religieux traditionnels, au moins localement, connu sous le nom «Oulad Sharif» ou «Oulad zaouiya" ou "Imrabdhane». Le deuxième type nous pouvons appeler bienfaiteurs mosquées qui ont fui à l'idéologie islamiste radical qui a contribué de manière significative à apporter des changements radicaux dans certains cas, à la fois au niveau des pratiques de dévotion et les fonctions sociales de la mosquée ou au niveau de l'architecture de ce contexte institution sociale et culturelle. Bien entretenus les mosquées des zaouiyas et de sanctuaires, en dépit de la présence de quelques transformations résultant de nouvelles influences culturelles reçu par contact direct ou indirect.

Souligne l'importance d'étudier le thème de la «les mosquées des zaouiyas et de sanctuaires » dans la zone spécifiée, à connaître son histoire et ses origines, l'évolution et faire la lumière sur le passé et le présent, en tant que pilier des piliers de la civilisation humaine, et un large éventail de l'architecture et de culture religieuse, et une source de changement et de transformation sociale, et l'étude de ces institutions signifie étude culture caractérisée par énergies renouvelables, et signifie réellement l'étalement urbain et l'originalité.

Cette recherche est une tentative de retracer l'évolution des mosquées des zaouiyas et de sanctuaires, et les transitions fonctionnelles témoins de ces institutions qui sont en partie un héritage symbolique dans l'Aurès, au moins sur trois siècles, et les facteurs d'enquêtes historiques, économiques et environnementaux qui ont contribué à cette évolution et de transformation.

☜ : دشرة تكوت نموذج القرى والمداشر الأوراسية.

تقع أغلب قرى الأوراس الأوسط والأوراس الجنوبي على سفوح الجبال وعلى ضفاف الأودية التي تخترقها، والبعض منها يقع على مرتفعات صخرية بشكل عظم الكتف يطلق عليها باللغة المحلية (هَاغْرُوتْ Thaghrout). مثل قرية تَكُوتْ T'kout في مخططها القديم و (ثَاغْرُوتْ عمر Thaghrout Amor) بضاحية آريس، إلى غير ذلك من المداشر والقلاع التي تنتشر على طول وادي الأبيض ووادي عبدي ووادي العرب...

معظم هذه المداشر يقع على موضع مقابل للشمس يطلق عليه باللغة المحلية اسم: سَامَرْ/Sammè. ولما بحثنا عن الخلفية الثقافية لذلك، وجدنا أن المعتقد الديني سيطر على مختلف التفسيرات، حيث أن القبلة هي الجهة الأساسية التي توجه إليها كل البيوت ودور العبادة. لكن منطق البحث وجهنا إلى استجلاء الحقيقة التاريخية قبل مجيء الإسلام، إذ أن سكان شمال إفريقيا كانوا يوجهون مساكنهم ومبانيهم نحو الشرق وربما كانت العوامل الطبيعية والمناخية هي التي كانت تتحكم في عملية اختيار مكان البناء، دون إهمال تأثيرات المعتقد الديني. وحتى دلالة اللفظ «سَامَرْ» في الأمازيغية تعني المكان المقابل للشمس والذي يتميز بالدفء. فاللفظ «سَامُورْSamour» وهو النار المستعرة. والفعل «يَسَّومَّرْ Yassommar» جلس مقابل الشمس ليتدفأ بأشعتها...

ليس لقرى الأوراس نموذج موحد للتخطيط والبناء، فيلاحظ بصفة عامة، أن القرى التي تبنى على السفوح والضفاف تساير السفح والوادي، إلى أن يحدها حاجز طبيعي يمتد هذا البناء بخط أفقي وتشتمل منازله على الأحواش. أما التي تبنى على مرتفعات صخرية فتكون منازلها غالبا من طابق علوي لأفراد الأسرة، ومرافق أرضية لمختلف الحيوانات.

وكانت القرى الأوراسية تشتمل على: المسجد الذي يعتمل لأغراض الدين والدنيا، والزوايا أو المكاتب القرآنية لتلقي التعليم القرآني أو لنشر مبادئ طريقة من الطرق الصوفية المتواجدة بالأوراس. والمقبرة التي غالبا ما تكون بجوار المسجد، والملاحظ أن هذه الفضاءات الثلاثة: المسجد، الزاوية والضريح، والمقبرة تكون متلازمة. وقد نجد في بعض الأحيان عدة مقابر في قرية (القلعة أو الدشرة) واحدة، حيث تدفن كل فرقة موتاها في مقبرة خاصة بها، أو في مقبرة عامة يتم تقسيمها حسب فرق العرش الواحد خصوصا إذا نسجت حول المقبرة حكاية خرافية أو أسطورة، مثل أسطورة مقبرة لقصر الخاصة بكامل عرش بني بوسليمان.

إضافة إلى المسجد والزاوية والمقبرة، كانت القرى الأوراسية تشتمل أيضا على النادر، وهو مكان يهيأ بصورة دائرية لدرس الحبوب زمن أن كانت الزراعة معاشية، يستدعي ذلك تواجد المطحنة (الرحى*Moulin*) لطحن الحبوب عند توفر المياه في الأودية أو العيون الكبيرة مثل ما نجد في منطقة إينوغيسن[1] ومنطقة برباقة[2]. وفي أعلى الدشرة أو القلعة نجد المخزن الجماعي (القلعةMagasin collectif ou Grenier collectif).

1. البنية الاجتماعية (فرقة أولاد سيدي عبد السلام وعرش بني بوسليمان).

تزخر الذاكرة الجماعية في كافة أرجاء شمال إفريقيا بإشارات عديدة حول الجد المؤسس وشجرة النسب ونقطة الانطلاق وحركات الهجرة المتتالية، تتشكل هذه الإشارات ضمن رواية تستمد منها القبيلة شرعية وجودها وعمق تجذرها.

روايات الأصل هذه مكونة من أزمنة وفضاءات تحاول كل القبائل عند سرد منشئها إعطاءها ما يمكن من الدقة والوضوح واجتناب الوقوع في التناقضات، لأن هذه الروايات قد تكون في بعض الأحيان مختلفة من عشيرة إلى أخرى لدى نفس القبيلة أو أن تتضمن الأحداث التاريخية التي تتم روايتها أخطاء كرونولوجية. وليس بغريب كذلك أن نجد لدى نفس القبيلة روايات مختلفة اختلافا جذريا.[3]

الإدلاء بشجرة النسب وروايات الأصل ليست في متناول جميع القبائل والمجموعات فيحصل أن تكون بعض الأسر قادرة على الإدلاء بشجرة تشهد على انتسابها وتاريخها، في حين يتعذر على بعض الأسر الأخرى ولا تحضي ادعاءاتها النسبية باعتراف الجماعة.(4)

بهذه الصورة وجدنا فرق عرش بني بوسليمان المتوزع على بلديتين هما: بلدية تكوت التي كانت تسمى زمن الإستعمار بـ: دوار زلاطو Zellatou وبلدية إينوغيسن التي كانت تسمى بـ: دوار زلاطو الشمالي Zellatou nord نسبة إلى سلسلة جبال زلاطو التي تمتد من مضيق تاغيت جنوب غرب إلى جبال شليا شمال شرق. ويتكون هذا العرش من ثلاثة عشر فرقة (Fractions) من بينها فرقة «أولاد سيدي عبد السلام» التي تحتفظ بشجرة انتسابها. أما بقية الفرق لا نكاد نجد لها انتسابا صحيحا وموثقا عبر فترات تاريخها المحفوظ شفاهيا. فكل ما هنالك هو أن كل قبيلة تسعى عند سردها لرواية الأصل أن تكون هذه الرواية متضمنة لزمنين رئيسيين هما: الزمن الأسطوري (Le temps mytique) والزمن التاريخي (Le temps Historique) بتعبير الباحثة الفرنسية «فالونسي Valensi Lucette». كما تسعى هذه الفرق بكل جهدها أيضا أن يكون لها فضاءان رئيسيان كذلك هما: الفضاء الديني (L'espace sacré) والفضاء الدنيوي (L'espace profane).

من خلال مفهوم الزمن الأسطوري نحاول فهم تاريخ فرقة «أولاد سيدي عبد السلام» ورحلة انتقال جدها المؤسس. فهذا المفهوم يجعلنا نميز بين صنفين أو مجموعتين داخل عرش بني بوسليمان: مجموعة تتضمن فرقة أولاد سيدي عبد السلام المشيشي الولي الصالح، الذين يسمون محليا بالمرابطين. ومجموعة ثانية تتضمن الفرق المتبقية. وهي عبارة عن أسر متحالفة هاجرت من مناطق مختلفة داخل كتلة جبال الأوراس وخارجها، كما توحي بذلك مختلف الروايات الشفاهية المدونة في كتاب (مونوغرافية الأوراس Monographie de l'Aurès) مطلع القرن العشرين من طرف العقيد ديلارتيغ Colonel Delartigue.(5)وبالنسبة لهذه الجماعات المتحالفة ينطبق عليها مفهوم الزمن التاريخي Le temps Historique. ذلك لأن الذاكرة الجماعية لهذه الجماعات تحتفظ بمجموعة من الأحداث التاريخية التي عاشتها كل جماعة لفترات قريبة جدا، تغطي هذه الأحداث مساحة زمنية لا تتجاوز مائتي سنة. قد تكون حروبا أهلية، مجاعات، أمراض، خلافات آنية... المهم أنها أحداث مضبوطة كرونولوجيا.

إن تتبع حركة انتقال القبائل والأعراش من فضاء إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى، ليس بالأمر الهين، خاصة في شمال إفريقيا. فخارج دائرة الأسر الشريفة، نلحظ قطائع في تاريخ الجماعات البشرية التي عمرت هذه البلاد. وكل ما يهمنا في هذا المقام هو أن الجد المؤسس لعائلة أولاد سيدي عبد السلام هو سيدي مشيش(6) الذي خلف أربعة أولاد هم: سيدي عبد السلام(7) ومليح ويونس وموسى. أما سيدي عبد السلام بن مشيش فقد خلف أيضا أربعة أولاد هم: محمد وأحمد وعلي (علال) وعبد الصمد. وكلهم من جبل العلم بالمغرب الأقصى. فأولاد سيدي عبد السلام بن مشيش خمسة أقسام منهم فرقة في فاس بالمغرب الأقصى، ومنهم فرقة في الصحراء يقال لهم أولاد سيدي نايل، ومنهم فرقة في الجزائر ومنهم فرقة في تونس. هؤلاء كلهم ينتسبون إلى سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن جرمة بن عيسى بن سلام بن مروان بن حيدرة بن علي بن أحمد بن عبد الله بن إدريس. وعليه فإن سيدي عبد السلام من أبناء أحمد بن عبد الله وليس من غيره، وهو ما اتفق عليه النسابة.(8)

ومادام نسب الولي «سيدي عبد السلام» ينتهي إلى إدريس الأكبر فهو من سلالة الأشراف السعديين الذين ينحدرون من محمد بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.(9)وما دام هذا الولي كما تؤكد جل المصادر التاريخية أنه توفي مقتولا حسب ابن خلدون على يد قوم بعثهم لقتله ابن أبي الطواجن الكتامي الساحر المدعي النبوة، كان ذلك في جبل العلم سنة 626 هـ الموافق لـ: 1228م.(10)ولا يزال ضريحه أثرا ماديا شاهدا على ذلك، حيث لا يزال الناس يزورونه ويحجون إليه بصورة دورية ومنتظمة.

بناء على هذه الدلائل يتسنى لنا الافتراض أن إحدى الفرق المنتسبة إلى بني بوسليمان والتي تنحدر من سلالته هي التي هاجرت إلى الأوراس واستقرت بمنطقة تكوت (جبال زلاطو) وأسست مسجدا بها بعد ما بنت ضريحا لأحد أحفاد الولي عبد السلام بن مشيش الذي سمي باسم جده المؤسس، على اعتبار أن المجتمعات التقليدية المحافظة تحيي ذكرى الشخص المتوفى بإعادة تسمية أحد أقاربه أو أحفاده باسمه. هذا عن افتراضنا الأول. أما افتراضنا الثاني فيتمثل في أن الطبيعة الانقسامية للمجتمعات المغاربية حسب مفهوم جاك بيرك (Jaque Bergue)[11] يتطلب جدا مؤسسا، عادة ما يكون حقيقيا أو خياليا أسطوريا تبرر به القبيلة وجودها وتبني عليه حكاية أو أسطورة انتمائها العريق للمنطقة أو للفضاء الذي تعيش فيه.

لكننا إذا استندنا إلى هذه المفاهيم التي استخدمتها الأنثروبولوجيا الكلاسيكية في تحليل ودراسة المجتمعات المغاربية، قد نواجه عقبة عجز أو عدم قدرة هذه المفاهيم على فهم طبيعة هذه المجتمعات حيث يفقد حسب د. محمد نجيب بوطالب مفهوم «الجد الأسطوري» دعائمه على أرض الواقع الحديث والمعاصر، ويتحول «الجد» إلى رمز لمركزية الوحدة الاجتماعية، حيث لعبت المكونات الاجتماعية والجغرافية والسياسية دورا أساسيا في هيكلة القبيلة في شكلها الحديث نسبيا، وأدى الاختلاط والولاء والالتجاء والتزاوج والاحتماء إلى ضعف العصبية الدموية ووحدة النسب والأصل، كما لعب مفهوم «الاتحاد القبلي»دورا أساسيا في تذويب النسب الدموي.

هكذا ونحن بصدد البحث عن نسب الولي سيدي عبد السلام الذي يتواجد ضريحه بقرية تكوت القديمة (الدشرة)، والبحث عن أدلة نرجح من خلالها فرضية من هذه الفرضيات التي أشرنا أليها، عثرنا على نص لوثيقة تاريخية يتضمن نسب الولي نقله الأستاذ المختص في التاريخ مزهودي مسعود من جامعة باتنة، وهو أحد أبناء البلدة، والمنتمين إلى عرش بني بوسليمان. فهذا النص المنقول عن هذه الوثيقة يدعم افتراضنا الأخير حيث نجد أن اسم عبد السلام ورد أكثر من مرة في شجرة النسب التي تضمنتها هذه الوثيقة. هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد أن الأسماء الواردة في شجرة النسب هذه تسمى بكثرة لدى هذه العائلة إلى يومنا هذا مثل: محمد وأحمد والمعلى بالإضافة إلى عبد السلام.

والولي الذي نتحدث عنه في هذا البحث هو عبد السلام الثالث أحد أحفاد القطب مولاي عبد السلام المشيشي المدفون في جبل العلم بالمغرب الأقصى. فهو **سيدي عبد السلام بن** المعلى بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن مسعود بن عيسي بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد الله بن عبد الكريم بن محمد بن **عبد السلام بن** مشيش بن **مولاي عبد السلام بن** مشيش.

وهناك من يرى بأن هذا الولي من مريدي الولي سيدي عبد السلام وتابعيه، والذي يطلق عليه بـ(الخوني أو لخديم) أصله من منطقة بشار بالغرب الجزائري وتحديدا منطقة توات، أين ينتشر اسم (التواتي) بكثرة نسبة إلى هذه المنطقة، وهو الاسم الذي نجده يسمى لدى العائلة المشيشية في منطقة تكوت دون الفرق الأخرى، وحتى فيزيونومية أفراد العائلة المشيشية المتواجدة بالمنطقة تدفع إلى بسط مثل هذه التحليلات.

هذا الخادم تزوج من ابنة الولي الوحيدة وخلف منها، وانتسبت ذريته إلى مشيش أحد أسلاف الولي سيدي عبد السلام، من بين أبنائه: أولاد يكن أو (أيث يكن باللهجة المحلية) وهم: التواتي، وأمحمد. ثم أولاد لحس أو (أيث سي لحسن) وهم: لحسن، عبد العزيز، محمود، أحمد. (أنظر شجرة القرابة الدموية).

وفيما يلي نص الوثيقة المكتوب في الأصل بالخط المغربي قام بنقله وتحقيقه الأستاذ مزهزدي مسعود:

بسم الله الرحمن الرحيم

صلي الله على سيدنا محمد

الحمد لله الذي جعل أهل السلسلت وغرسهم فى الجبال والأوطان وفرقهم فى العربان والأنساب ولم يعرف أحد يفرق بينهم بالنسب إلى من هو شريف والى من هو غير شريف فأول ذلك نسبت الشيخ الولي الصالح القطب الرباني

المعيض سيدي عبد السلام المنشأ نسبه من الغرب من جبل الزبيب المسما بقبرين المطصل(ربما المتصل) ببلاد أتكوت وهو من أصل حقيق (حقيقي) شريف وإسمه عبد السلام ابن مشيش وفى القات(؟) ابن عطا الله وإسمه عبد السلام وإسمه عبد السلام (مكرر فى الوثيقة) إبن المعلى وأما أولاده من صلبه نبده(نبدأ) عليهم بالتفريق في الدنيا وفى الآخرة سعدهم وزقهم على الله(ربما رزقهم على الله)لا يطيق ببركات السدات والجدود معهم وكان مسبوغ فى نهار....(كلمة غير مفهومة) فى عيد الكبير من سيدي أبو مديان الغوث وإتصلت طريقتهم من أبي حامد الغزالي وكان نسبته:

سيدي عبد السلام ابن	عبد السلام بن	مولاي عبد السلام بن
المعلى ابن	مشيش بن	مشيش بن
أحمد بن		علي بن
محمد بن		فاتح بن
عبد الله إبن		عبد الله بن
أحمد ابن		عمر بن
مسعود بن		محمد بن
عيسي ابن		سليمان ابن
أحمد ابن		داود بن
عبد الواحد بن		جنود بن
عبد الله بن		عبد الله بن
عبد الكريم بن		سعد ابن
محمد بن		خلف ابن
		مسعود ابن
		بشير ابن
		مروان بن
		يزيد بن
		أنس ابن
		منصور ابن
		عيسي ابن
		ابراهيم ابن
		إسحاق بن
		حمد(محمد) بن
		إدريس ابن
		إدريس بن
		عبد الله بن
		محمد بن
		لحسن(الحسن) ابن

علي بن أبي طالب رضي الله عنه الحسن بن فاطمة الزهر بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم تسليما كثيرا (12)

وثيقة تاريخية وجدت في مسجد سيدي عبد السلام بتكوت تثبت نسب عائلة سيدي عبد السلام

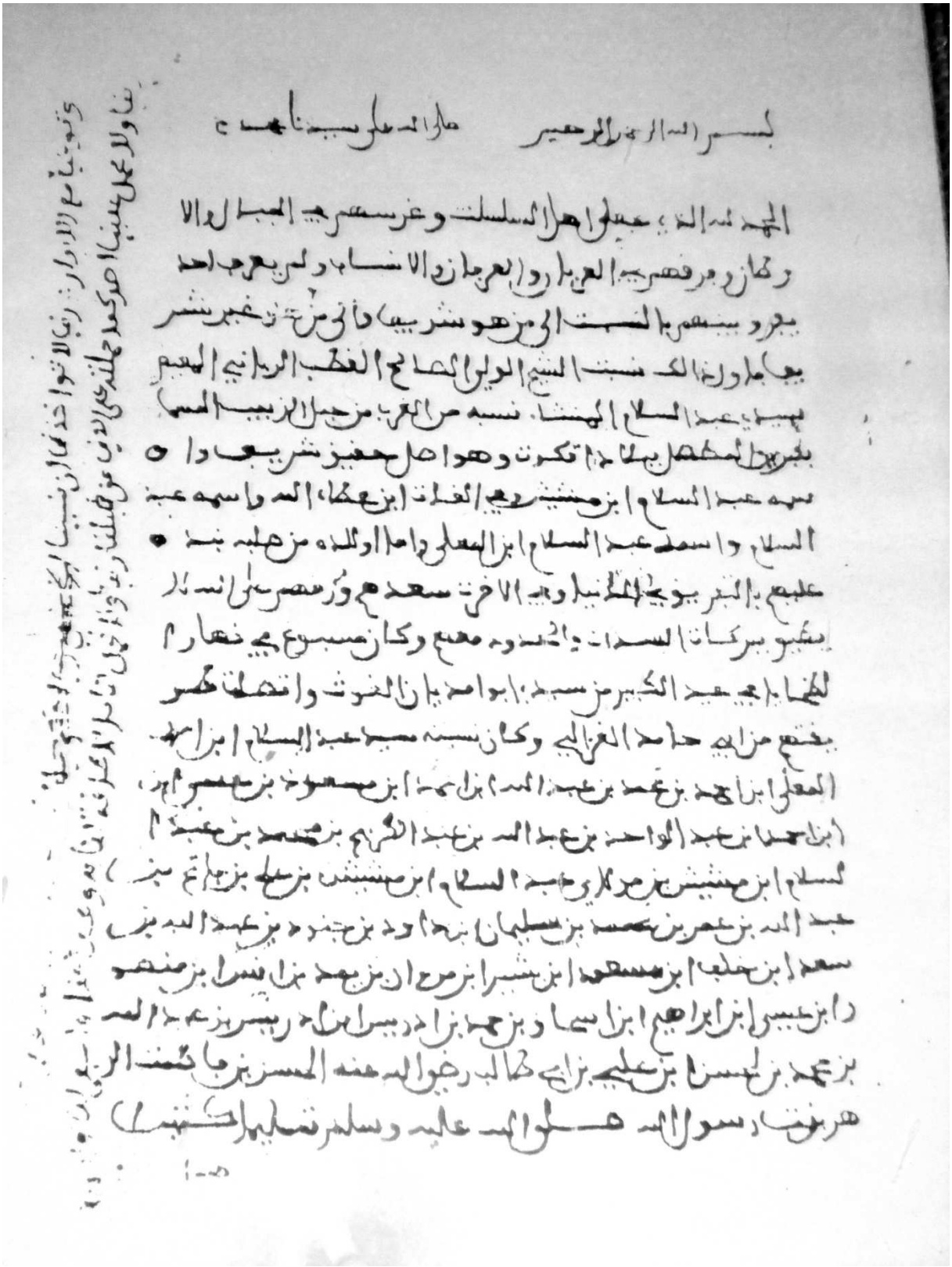

القرابة

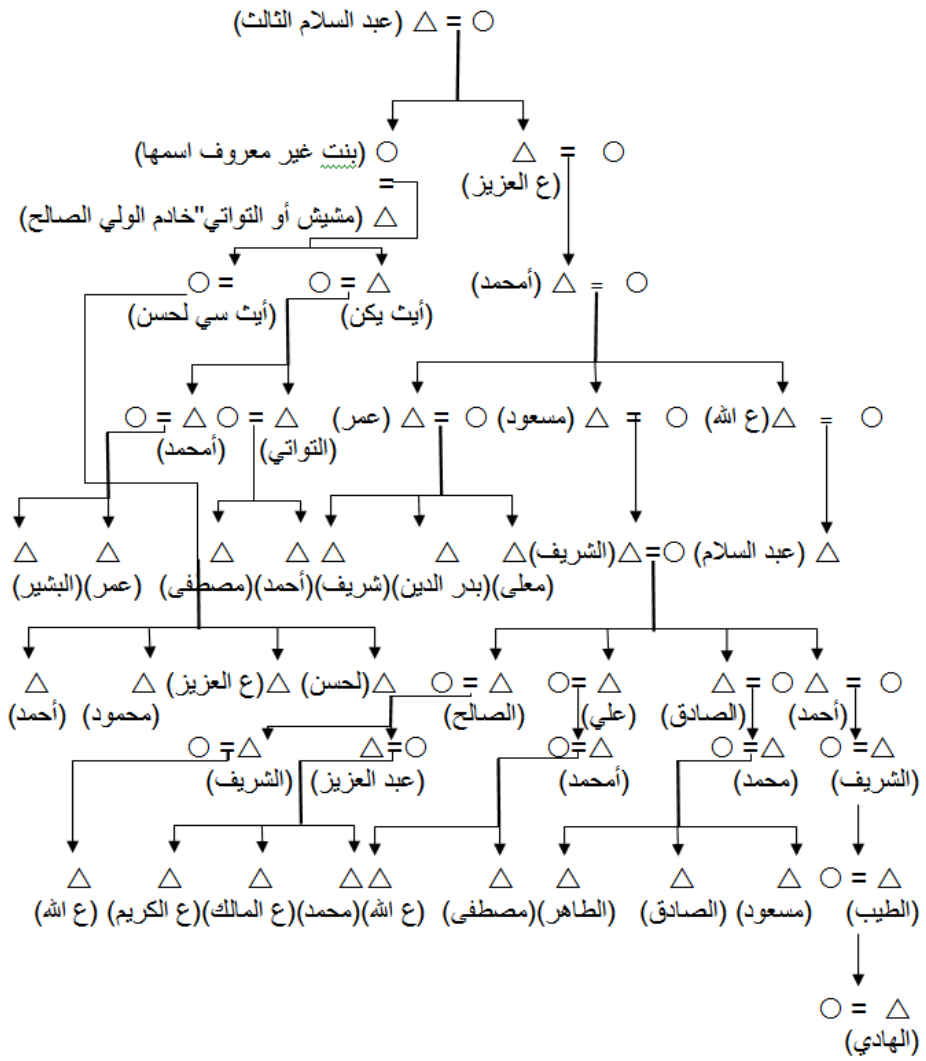

الدموية لعائلة سيدي عبد السلام المشيشي

2. تأسيس الزاوية بمنطقة تكوت.

تقع قرية تكوت على بعد 90 كلم جنوب مدينة باتنة، في منطقة جبلية شبه صحراوية، وكغيرها من القرى الأوراسية المتواجدة جنوب الأوراس شهدت تحولات عمرانية على مدى عدة قرون، إذ تشكل الدشرة القدمة أو "تكوت الدشرة" النموذج المثالي للقرى العمودية التي تبنى على صخور بشكل عظم الكتف، وهنا نجد أن المخطط العمراني التقليدي يعكس خلفية ثقافية تكشف عن مراعاة الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية مشبعة بثقافة دينية، حيث تحتل الفضاءات الدينية مكانا هاما داخل النسيج العمراني.

ويتشكل النسيج العمراني لقرية تكوت (الدشرة) من ثلاثة أجزاء أساسية مشكلة هرما تأتي القلعة في قمته تمثل الاقتصاد المعاشي للمجتمع المحلي، ثم تأتي البناءات السكنية في وسطه، أما الفضاءات الدينية فتشكل قاعدة هذا الهرم. وتتوزع هذه الفضاءات بحسب الأراضي الموهوبة والمخصصة كأوقاف للزاوية أو المسجد، إذ نجد المقبرة والمسجد والزاوية (المدرسة القرآنية) وقبة الضريح متجاورة، فغالبا ما نجد هذه الفضاءات منفصلة عن بعضها البعض، فهي متلازمة في معظم القرى الأوراسية.

وإذا ما ربطنا بين النسيج العمراني والنسيج الاجتماعي لمنطقة تكوت وحاولنا ربطه بالجوانب الاقتصادية والمعاشية من جهة، والعوامل الدينية من جهة أخرى، نجد أن الفرقة الوحيدة المتواجدة بكثرة ضمن النسيج العمراني

لتكوت الدشرة هي «فرقة أولاد عبد الرزاق» وهي الفرقة التي كانت في الماضي تمارس الترحال الموسمي بين الصحراء والجبال، فهو نمط عيش بدوي عرفه سكان المنطقة منذ قرون طويلة فرضته قسوة الطبيعة وندرة الأمطار. وأسفل هذا النسيج العمراني وفي المناطق الهشة بتعبير الاثنولوجيا الفرنسية، نجد فرقة «أولاد سيدي عبد السلام» العائلة الشريفة المستقرة التي تجسد السلطة الدينية تمثل تحولا جديدا بالنسبة إلى السكان الأصليين لهذه المنطقة فهو نمط عيش حضاري جديد عرفته المنطقة والمجتمع المحلي ككل على أوجه عديدة منها الوجه الثقافي الديني.

الزاوية مأخوذة من الفعل زوى وانزوى بمعنى ابتعد وانعزل، وسميت كذلك لأن الذين فكروا في بنائها أول مرة من المتصوفة والمرابطين[13] اختاروا الانزواء بمكانها الابتعاد عن صخب العمران وضجيجه، بحثا عن الهدوء والسكون لأنهما يساعدان على التأمل والرياضة الروحية، ويناسبان جو الذكر والعبادة[14]، وتعني عادة الركن من البيت وتولدت لها معاني كثيرة مثل قولهم انزوى الناس بعضهم لبعض أي تضامنوا وتآلفوا.[15]

فالزاوية بناية ذات طابع ديني وثقافي يقيم فيها الشيخ الصوفي ويقوم بتأدية الصلاة والعبادة وتلاوة الأوراد، يخدمه متطوعون نذروا أنفسهم لخدمة الزاوية، وقد تطلق على مقر المرابط "الشيخ" في حياته وبعد مماته، أما أن يكون قد أسسها بنفسه أو بنيت على ضريحه من بعده من طرف الأتباع.[16] أما دونفول فيقول: «الزاوية عبارة عن مكان تجمع من حولها بين عشرين وثلاثين مسكنا...وأحيانا تشمل مدينة بكاملها، وهي بناية مربعة الشكل تعلوها قبة تبنى تكريما للمرابط، وقد تكون مأوى للمتصوفين والفقراء».[17]

فالزوايا إذن مراكز ومقرات لمشايخ الطرق الصوفية، قد تكون محل تلقى فيه دروس للطلبة به مساكن خاصة لهم تتوفر فيها جميع الظروف المادية والعلمية، وقد تكون ملجأ للطلبة أو للعلماء المغتربين يجدون فيها المأوى مجانا وكذلك للفقراء وأبناء السبيل، وقد تكون ضريح عالم أو رجل صالح، وفي سائر الحالات يوجد بها مسجد للصلاة والوعظ والإرشاد والأذكار الصوفية. ظهرت الزاوية في المغرب العربي منذ القرن الثالث عشر لتحل محل الرباط، ونمت في القرن الخامس عشر لسببين هما: ضياع الأندلس والغزو الأجنبي الذي تمثل في احتلال اسبانيا لثغور الجزائر.[18]

لا تتوفر لدينا معلومات تاريخية مضبوطة عن تاريخ بناء زاوية سيدي عبد السلام حفيد القطب مولاي سيدي عبد السلام المشيشي، نظرا لعدم وجود كتابات تاريخية حولها سواء في العهد التركي أو في العهد الاستعماري ولا في عهد الاستقلال رغم السمعة التي تتمتع بها في الأوراس والزيبان. هناك أمران يمكن لنا الاستناد عليهما لتحديد ولو بصورة تقريبية تاريخ بناء الزواية. الأمر الأول هو ما وجدناه مكتوبا في محراب مسجد سيدي عبد السلام بدشرة تكوت (تكوت القديمة)، حيث كتبت العبارة التالية: على يمين المحراب بسم الله الرحمن الرحيم وعلى يساره سيدي عبد السلام عام 1214هـ. أما عن الأمر الثاني فيتمثل في تاريخ ظهور الطرق الصوفي في الجزائر، إذ بدأت تظهر منذ بداية القرن السادس عشر، وأخذت تنمو وتتسع حتى انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر.[19]

لقد تم تأسيس زاوية بمنطقة تكوت كانت منارة علمية مشعة اتخذت منها الطريقة الشاذلية مقرا لهـا تـنظم بـه لقاءاتها وتستقطب أتباعها، والدال على ذلك تأسيس مسجد في شكل جامعة يسمى «مسجد سيدي عمر بن عبد السـلام» تعاقب على التدريس به مجموعة من المشايخ والأئمة هم:

الرقم	اسم المعلم أو الشيخ	الفرقة التي ينتمي إليها	ملاحظة
01	سي السعدي بن مشيش	أولاد سيدي عبد السلام	
02	سي الصادق رحماني	أولاد الحاج (إمرابظن)	
03	سي الحسين شريف	أولاد الحاج	**(تتلمذ على يد ابن باديس)**
04	سي محمد مصطفى عاشوري	من فرقة أولاد قاسم	
05	سي عبد الله مسعودي	أولاد سيدي عبد السلام	
06	سي الهاشمي بدر الدين	أولاد الحاج (إمرابظن)	
07	سي شباح شريف	أولاد الحاج (إمرابظن)	
08	سي عيسى عبيدة	أولاد عبد الرحمن	
09	سي الشريف رحماني	أولاد الحاج (إمرابظن)	
10	سي المكي شريف	أولاد الحاج (إمرابظن)	
11	سي لزهر عباسي	أولاد الحاج (إمرابظن)	
12	سي الفوضيل عبد السلام	أولاد سيدي عبد السلام	
13	سي لخضر زباش	عرش الشرفة	

3. سوق عيد الخريف وزردة سيدي عبد السلام.

السوق الشعبي عبارة عن مكان وتجمع تجاري تقليدي يعبر عن عادات وتقاليد المنطقة التي يتواجد فيها السوق، وهي تسمى بأسمائها الاعتيادية لكن قد يطلق عليها أسماء أخرى مثل سوق الخميس أو سوق الأحد، على الرغم من إنها أسواق مفتوحة طوال العام إلا أنها تُسمى باسم أحد أيام الأسبوع ليكون المزاد العلني أو الحراج على بعـض البضـائع القادمة من خارج المدينة في ذلك اليوم وفي مكان مخصص داخل السوق. ويكثر تواجد كبار السن وبعض متذوقي عبق الماضي في هذه الأسواق وهم يشكلون غالبية الزبائن حيث بدأت هذه الأسواق بالاندثار شيئاً فشيئاً بوجـود الأسـواق الحديثة التي تختلف اختلافاً جذريا من ناحية المكان والبضاعة وأحيانا الزبائن.

وتنتشر في الأوراس والزيبان الكثير من الأسواق الشعبية الموسمية والأسبوعية، أشهرها سوق عيد الخريـف بتكوت وسوق 26 رمضان بسيدي خالد. لكننا لا نعرف إلا القليل عن الأبعاد أو الخصائص المكانية والزمانية المختلفة لهذه الأسواق. وفي غياب الدراسات التفصيلية عن ظاهرة الأسواق الدورية والموسمية فإننا نكتفي بما توفر لـدينا مـن معلومات – وهي معلومات ضحلة– عن هذه الأسواق، مقتصرين في حدثينا عنها على الأسواق التي تـرتبط ارتباطـا مباشرا أو غير مباشر بالأولياء الصالحين.

ارتبطت الأسواق الشعبية الأسبوعية بالفضاءات الحضرية الآهلة بالسكان، في حين نجـد الأسـواق الشـعبية الموسمية مرتبطة بالفضاءات التي يتواجد بها الأولياء الصالحون، أو تلك التي يتواجد بها الضريح أو المزار. فالأولياء وذوي البركة أو المباركون يلعبون دورا مركزيا رغم وجودهم في مواقع هامشية بالنسبة للنظام القبلي، إذ أن حضورهم

هو الذي يعطي الطابع الرسمي لأهم أحداث الحياة الاجتماعية والسياسية القبيلة والعشائرية.[20] بذلك تجلب المبادلات التجارية المعاشية إلى مناطق إقامتهم.

وفي مقال لـ: إرنيست غيلنر Ernest André Gellner بعنوان: «المغرب مرآة للإنسان » يقول عن السوق المرتبط بالولي والضريح ما مضمونه: «دون شك هنا كما هو الحال في كل مكان كان السوق أيضا عبارة عن موسم يضمنه ولي وضريح يقوم السوق في حرمه، والذين يأتون للسوق يأتون من أجل متع الحياة وليس لرفضها، والأولياء الأحياء الذين أيدوا مثل هذه الزيارات المتعددة الأغراض ليس من صالحهم أن يكونوا جهة رقابية، وليس لديهم ما يدفعهم لذلك، وسيكون أمرا غريبا لو فعلوا ذلك بالفعل»[21].

وعن سوق عيد الخريف الذي يقام بصورة دائمة في غضون الأسبوع الأخير من شهر أوت بالتقويم الميلادي، الذي يصادف 15 غشت بالتقويم الفلاحي. هذا السوق يعبر عنه محليا بـ: «عيد الخريف»، وأحيانا يتم التعبير عنه في لغة الحياة اليومية بـ: «سوق عيد الخريف»، فهو يصادف آخر يوم من أيام الصيف أو (السَّامَثْ Sammeth) بالتعبير المحلي. إنه عيد لأن الفواكه التي تجود بها حدائق مختلف

مناطق الأوراس تينع في هذه الفترة، وبالتالي فهو عيد الفواكه، وبعض المنتجات الطازجة والكثير من النعم[22]. وفي نفس الفترة تشهد المناطق الصحراوية نضج التمور اللينة المسماة بـ: (الغرس).

يعتبر سوق عيد الخريف في مدينة تكوت معلما سياحيا واقتصاديا وتظاهرة ثقافية، ومن أهم وأشهر الأسواق الشعبية في الأوراس والزيبان. و يحظى هذا السوق باهتمام كبير تعدى حدوده الاجتماعية والجغرافية. إذ يأتيه الناس في الماضي كما تذكر جيرامن تليون Germaine Tillion في كتابها «Il était une fois l'ethnographie»[23] وصلت شهرته حتى المناطق المجاورة مثل وادي ريغ والحضنة والمناطق التلية والهضاب.

لسوق عيد الخريف نكهة خاصة ارتبطت بالذاكرة الجماعية للمجتمع المحلي على وجه الخصوص، فهو من ناحية الاقتصاد المعاشي يحتوي على بضائع ومنتجات تقليدية محلية قد لا تجدها في كثير من المناطق ففيما يخص المنتجات الفلاحية نجد: العنب، التين، الرمان، زيت الزيتون، الجوز، واللوز... وفيما يخص المنتجات الحيوانية التي تباع في مثل هذه الأسواق نجد: الزبدة التي تسمى باللغة المحلية باسم (الدهان)، ثم لكليلة واللحم المجفف. وتغتني مثل هذه الأسواق بمنتوجات مصنوعة من الحلفاء، وأخرى منسوجة من الصوف والشعر والوبر، كما تنحت أو تصقل منتوجات أخرى من الحجر وقد تبدع من الخشب حسب الضرورة والحاجة.

ومن ناحية العلاقات الاجتماعية يشكل سوق عيد الخريف مناسبة للنظر في القانون العرفي، حيث يراجع في موسم عيد الخريف من كل عام حيث عن طريقه يتم ضبط العلاقات الاجتماعية التي تربط مختلف الشرائح الاجتماعية ببعضها البعض، أو التي تربط بين الأعراش والقبائل. كما تشكل هذه المناسبة ملتقى تتفق فيه الأعراش في إطار التآزر الاجتماعي على المساهمات التي تقدمها مختلف القبائل ضمن العادات الاجتماعية السائدة في هذه المناطق كالأفراح والمواسم وكذلك المآتم.

وقد اقترن سوق عيد الخريف بزردة سيدي عبد السلام، أو «جمعة سيدي عبد السلام» كما يريد المجتمع المحلي أن يطلق عليه محليا، على اعتبار أن جمعة سيدي عبد السلام تسبقها جمعة أخرى تقام فيها زردة سيدي عيسى بقرية جار الله تسمى بـ: «جمعة سيدي عيسى». نعم اقترن سوق عيد الخريف بزردة سيدي عبد السلام كما يروي لنا أحد المسنين ذلك أن السوق كان يضرب بتكوت القديمة (تكوت الدشرة) بالقرب من المسجد والضريح أين تؤدى الصلاة ويزار الضريح أو مقام الولي وتقام الزردة، ثم تتم المبادلات التجارية في إطار ما يسمى بالمقايضة.

ففي الماضي كان الناس يزورون الضريح كلما حل موسم الخريف، ويقيمون الزردة التي تمثل في حقيقتها طعاما جماعيا له قيمة رمزية، تقوم العائلة المشيشية بتقديمه إلى الزوار الوافدين إلى حضرة الولي سيدي عبد السلام، وقد

استمر الأمر على هذه الصورة على الرغم من محاربة جمعية العلماء المسلمين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي لظاهرة الأولياء وما ارتبط من ممارسات تعكس التدين الشعبي في كل المناطق التي أسست فيها كتاتيب لتعليم القرآن من طرف شيوخ درسوا في جامع الزيتونة بتونس أو تلقوا تكوينا خاصا في المدرسة الكتانية بقسنطينة على يد الإمام ابن باديس.

تلعب بركة الشيخ دورا فعالا في حماية السوق وسريان النظام واستمرار التراتبية الاجتماعية، حيث نجد في الماضي سوق عيد الخريف يقام في حضرة الولي الصالح سيدي عبد السلام، الذي تحرس روحه السوق من المفسدين، تماما مثل ما هو ساري في عموم المنطقة المغاربية؛ إذ نجد في منطقة القبائل يقام السوق تحت مسئولية ورعاية شخص زعيم مشهود له بالشرف ورفعة الهمة. وفي المغرب أيضا نجد في سوق سيدي عابد (الذي يقام في 15 أوت من كل سنة بالتقويم الميلادي تماما مثل سوق عيد الخريف بتكوت) بركة سيدي عابد تحول حزام اللصوص إلى ثعبان.[24]

هذا عن سوق عيد الخريف الذي كان يضرب أو يقام بالقرب من المسجد الذي يتواجد به ضريح سيدي عبد السلام في تكوت القديمة (تكوت الدشرة). أما سوق عيد الخريف اليوم فنستطيع القول بأنها كغيرها من الأسواق الأخرى – موسمية كانت أم أسبوعية – لا تستطيع الانفلات من التحولات التي شهدها كل مظاهر الحياة الاجتماعية في عموم الدول المغاربية، خاصة من ناحية المعتقدات الشعبية ومظاهر التدين الشعبي التي تضاءلت فعاليتها بالتدريج بدءا من ثمانينات القرن الماضي.

وما دمنا قد تحدثنا فيما سبق عن ما يسمى في عرف المجتمعات المحلية القاطنة بمختلف مناطق الأوراس بـ(هَارْفِيقْثْ أو ثَارفيقث Fraction)، وهو الموضوع الذي توقفت عنده مختلف الكتابات الأجنبية كثيرا، خاصة كتابات الفرنسيين، من بينهم إميل ماسكوراي[25] E. Masquerey والباحثة المكناة بالأوراسية جيرمان تيون[26] G. Tillon. حيث حاولت هذه الأخيرة أن تزيل اللبس الذي يكتنف مفهوم (العرش) ومفهوم (هارفيقث)، فقالت أن الأول تجمع سياسي، والثاني تجمع عائلي. والتعبير الذي يستعمل محليا ويزيل هذا اللبس هو "أَيَثْ عَمِي"، بمعنى كل المنحدرين من جهة الأب. وعادة ما يحملون اسما معينا يكون بمثابة اسم الجد حيث تقدم له وجبة سنوية كل عام تسمى «**الزردة**».

والزردة وليمة كبيرة تقام تقربا من الولي الصالح المزعوم فتقام عند ضريحه الأسواق وتذبح له وعنده الذبائح....وعادة تكون في موسم معلوم و لكل قوم زردتهم. يقول لنا أحد الإخباريين وهو رجل كهل درس بالزاوية: كنا نزور المشايخ بنية خالصة ونتبرك بآثار الصالحين ونتمسح بقبورهم ونتوسل بهم ونقيم الزردات و الوعدات كلما مرت بنا المحن فنظفر بالمنن وتفرج علينا حتى جاء الباديسيون وقطعوا علينا هذه الإحتفالات البهيجة وغابت علينا وغضب علينا ديوان الصالحين. أفليس من الخير أن نعود إلى الزردة والوعدة ونحيي ما اندثر , فإن ذلك عادات الآباء والأجداد , زيادة على الرجاء في تبديل الأحوال وانصراف الأهوال وإرضاء الرجال وعسى أن تنفرج عنا المحن وتكثر المنن .

4. منبع سيدي عبد السلام والقبة المقدسة.

يرتبط الإنسان بالطبيعة التي يعيش في كنفها ارتباطا روحيا. فهذا الاتصال والترابط او التعايش ما بين الإنسان والطبيعة بجميع مظاهرها وعناصرها المختلفة، كان له تأثير كبير جدا، إن لم نقل بأنه كان المجال الواسع الذي ترعرعت فيه بذور الفكر الإنساني. فهذا الاتصال الروحي ما بين الإنسان وطبيعته، أدى إلى خلق وتكوين أروع وأعظم الأفكار الإنسانية التي نمت شيئا فشيئا الى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن.

ومن بين العناصر الطبيعية التي جلبت انتباه الانسان إلى درجة العبادة والتقديس الماء[27]، إذ كانت عبادة الماء وتقديسه من الأفكار الدينية المنتشرة في كثير من مناطق وحضارات العالم القديم. وبذلك يكون الماء قد حاز أهمية كبيرة كما في العقلية الدينية والروحية لكثير من أديان ومعتقدات الإنسان قديما وحديثا لا تقل عن أهميته العلمية. وهذا يظهر جليا واضحا عندما نتتبع النصوص الدينية فقط، بغض النظر عن الممارسات الفعلية والطقوس المصاحبة لهذا

العنصر (الماء). فلا تكاد تخلو عقيدة دينية إلا وكانت تقدس هذا العنصر، بطريقة معينة سواء فكرا أو طقسا. وهذا يرجع إلى ما للماء من أهمية كونية، وماله من ارتباط وثيق بحياة الإنسان على المستوى الفردي أو الجماعي.

على العموم فإن الماء في مختلف الثقافات العريقة يشكل ركيزة هامة في ممارسة الطقوس الدينية، فالوضوء والطهارة في الإسلام والطهارة في اليهودية، والتعميد في المسيحية، والاغتسال في الطقوس الدينية الصابئة، والاستحمام في النهر المقدس لدى الهندوس، والغمر في الأنهار والمياه المقدسة لدى مختلف الأمم والشعوب، مثل بئر زمزم، والأنهار والشلالات المائية لدى الهنود الحمر والأفارقة والآسيويين.

ورمزية الماء أو الاغتسال والطهارة في الثقافة الإسلامية بعادات الغمر والغطس في الماء بالثقافة العالمية العريقة، فالاغتسال بماء زمزم في الحج والاغتسال بماء العيون والمنابع تجد مرجعيتها العميقة، لا من قدرتها الاستشفائية الخارقة من الأمراض الجلدية المستعصية، فحسب بل لارتباطها بعمق الطقوس الدينية القديمة في النفس الإنسانية. ففي قصة موسى عليه السلام عندما أراد أن يستسقي قومه ماء، ضرب بعصاه الحجر فانفجر منها اثنتا عشرة عينا بعدد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وتجمع الأسباط حول الماء وكان لكل سبط ماؤه المخصص. ولعل ذلك ما يفسر حمل هذه العيون في مختلف المناطق في المغرب الاسلامي أسماء الأولياء الصالحين لارتباط ذلك بالكرامات والقدرات الخارقة للأولياء عين: سيدي عبد السلام، سيدي علي، سيدي عيسى...

هكذا فإذا استقرأنا الماضي نجد أن الولي سيدي عبد السلام المشيشي الذي يتواجد ضريحه الحقيقي في بمدشر تازروت من بني زكار في جبل العلم بالمغرب[28]، يتواجد هنالك عين أو منبع مشهورة للحفظ وذلك أن من شرب ماءها يحفظ كثيرا ودليل ذلك أن جل سكان المدشر يحفظون كتاب الله (القرآن)، وقد ورد في كتاب (حصن السلام بين يدي مولاي عبد السلام بن مشيش) أن أكثر من واحد من سكان المدشر رأوا نورا يصعد من ماء تلك العين عيانا. ويروي مؤلف هذا الكتاب أن عبد الله سيدي محمد بن علي بن رسيون المجذوب المشهور يقول: «أن من أراد أن يكون أحفظ الناس يشرب من تلك العين المباركة لأن الشيخ القطب مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه كان يتوضأ فيها» [29].

هذا عن المنبع الذي يتواجد بالقرب من ضريح الولي سيدي عبد السلام المشيشي بجبل العلم بالمغرب، أما عن المنبع أو العين المسماة بـ: (عين سيدي عبد السلام) المتواجد على بعد عشرات الأمتار من جهة الجنوب الشرقي للضريح المزعوم أنه للولي سيدي عبد السلام المشيشي فإنه منبع تتدفق مياهه من جوف الصخور بنيت عليه قبة بالإسمنت المسلح زمن بناء المسجد الجديد الذي لا يبعد عن المسجد القديم بكثير من طرف أحد الأثرياء المنتمين إلى عرش بني بوسليمان يدعى: شعباني الوردي. قبة هذا المنبع تشبه القبة المرابطية[30] في مراكش التي بنيت لتكون دار وضوء، وكان ذلك في القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر ميلادي، تحت رعاية علي بن يوسف[31]، فهذا المنبع حسب ما هو محفوظ في الذاكرة الجماعية للسكان المحليين تقوى مياهه حينا وتضعف حينا آخر وذلك على حسب تساقط الأمطار والثلوج في فصل الشتاء. لكن في نهاية القرن الماضي اشتد الجفاف وطال أمده جفت مياه المنبع فأحضر هذا الشخص الثري حفارة جديدة من إيطاليا كما يروى محليا وقام بحفر بئر ارتوازية في منطقة ليست ببعيدة عن (عين) سيدي عبد السلام وبالتحديد في مكان يسمى (تَادَخْتْ)، ثم وضع مضخات تقوم بضخ المياه إلى المنبع المقدس ذو القبة، ليظهر للعيان على أن هذه المياه تنبجس أو تتدفق من بين الصخور بقوة تثير الإعجاب.

وهذه المياه وضعت لها مشرعة أو ساقية تصب في حوض لتتم بعد ذلك عملية تقسيمها بصورة تقليدية تستدعي النظر والبحث، وتسقى بها البساتين التي تحيط بالمسجد، جزء كبير منها كانت من أوقاف المسجد يقتات منها شيوخ المسجد ومعلموا القرآن بزاوية سيدي عبد السلام المشيشي. وما يسترعي الانتباه هنا هو أن الناس يفضلون التوضؤ فيه وبالكيفية الأقرب إلى الصورة الماضية التي تنعدم فيها المرافق الضرورية في المساجد مثل غرف الوضوء المسماة

بالتسمية الحديثة (المائضة). هنا نلمس حنين الناس إلى ماضيهم الأصيل من جهة، وميلهم إلى الحياة الطبيعية التي تتميز بالبساطة من جهة أخرى.

حاولنا النبش من خلال الذاكرة الجماعية خاصة روايات الشيوخ كبار السن على الكرامات المائية التي من المحتمل أن تكون عين سيدي عبد السلام تتميز بها، على اعتبار أن الولي المتصوف استقر في مضرب ملائم للعبادة والتصوف والزهد. لكن انزواء هذا النوع من التراث في ثنايا النسيان والتاريخ، جعل الناس لا يعيرون له أي اهتمام بفعل الايدولوجيا السياسية، وبفعل الظروف المختلفة التي مرت بها المنطقة عبر التاريخ.

هذا كله جعلنا نبحث عن الكرامات المائية من خلال مصادر أخرى وحاولنا اسقاطها على فضاء الدراسة، وهو ما وجدناه لدى د. سعيد بن حمادة في كتابه (الماء والإنسان في الأندلس) الذي تنبه إلى العلاقة الموجودة بين بالماء والتصوف، على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت موضوع التصوف في المشرق الإسلامي أو في مغربه، والتي تضمنت إشارات عنه ربطته بنتيجة مركزية هي: «أن التصوف ظاهرة إنسانية أفرزها مجتمع متأزم خائف، يواجه بها الخوف من الطبيعة»[32]. ومن جملة هذه الأزمات "الأزمة المائية". لكننا إذا ربطنا بين التصوف والأزمة من منطلق هذا الطرح من شأنه أن يحول التصوف إلى معطى ظرفي، يظهر بظهور الأزمة ويختفي باختفائها، في حين أن "الكرامة المائية" تستمد فعاليتها من القدسي، الأمر الذي يعطي لها الديمومة والاستمرار. وباختصار الأزمة ظرفية والتصوف ثابت، ومن المنطق أن يخضع الظرفي إلى الثابت، بمعنى أن الأزمات تعمل على تنشيط حيوية التصوف، منها الأزمة المائية.

وبالمقابل هناك من القراءات من نظرت للماء والتصوف بمنظور التحليل النفسي، معتبرة الكرامة المائية باعتبارها جزء من الكرامة الصوفية أحد مكونات اللاوعي[33]. ومن ثم نجد أن "الكرامة المائية" حسب هذا المنظور، خطاب رمزي يعبر عن صراع داخل الأنا الصوفية...غير أن مثل هذه الرؤى تجعل من التصوف ظاهرة مرضية لا سوية في الحضارة الإسلامية، مرد ذلك القراءة الاختزالية والأحادية التفسير.

5. أحجار سيدي عبد السلام مكان للخلوة والتصوف.

على بعد ما يقارب كيلومتر من المسجد العتيق الذي يتواجد فيه ضريح سيدي عبد السلام بدشرة تكوت، على الضفة الجنوبية (لشعبة آلما)، تتواجد مجموعة من الأحجار الكبيرة يمكن لشخص أو لمجموعة من الأشخاص أن يتفيأوا بظلالها، هذه الأحجار الكبيرة تسمى باسم هذا الولي كما هو ماثل في الذاكرة الجماعية للمجتمع المحلي موضوع الدراسة.

والبحث في أصول أسماء الأماكن والأشياء ليس سهلا وبسيطا، إذ لا توجد هنالك قاعدة تحكم تسمية هذا المكان أو هذا الشيء، لذلك تطرح هذه التسميات عدة إشكاليات على أكثر من مستوى: مستوى الدلالة، مستوى الرمز. ولهذا الجانب أهمية كبيرة من الناحية اللغوية والتاريخية والأنثروبولوجية والاجتماعية، فذلك يكشف لنا عن كيفية اتخاذ الأماكن والأشياء لأسمائها، وكيفية تعامل الناس مع المجال أو الفضاء الذي يشغلونه والأشياء التي يحتويها.

تعتبر الطوبونيما من بين المسارات العلمية التي تساعد على معرفة التاريخ الجماعي للجماعات المحلية، خاصة تلك التي تعتمد على الشفاهية لحفظ تاريخها، كما هو الأمر بالنسبة لكثير من مجتمعات المغرب العربي.

فهذه التسمية تدل على أن سيدي عبد السلام المشيشي خصص هذا المكان للعبادة والتصوف، حيث كان يعتزل عن الناس ويطيل الخلوة. فمن وسائل المتصوفة في طريق السير إلى الله تعالى الخلوة والاعتزال عن الناس لفترة معينة ينشغلون فيها بالعبادة والذكر. والخلوة هي المكان الذي ينقطع فيه الصوفي للعبادة لوحده بلا شيخ،[34] يختلي فيها الصوفي للتعبد والمناجاة والقيام بالرياضة الروحية. وعند الصوفية هي محادثة السر مع الحق، حيث لا أحد ولا ملك.[35] وهو ما يتوسل إليه الصوفي من التبتل إلى الله تعالى، والانقطاع عن الغير.[36] وقد نجد بعض الفضاءات

الدينية التي تحتوي على أماكن الخلوة أو الخلاوي مثل ما نجد في مسجد سيدي خالد على ضفاف وادي جدي الذي يحتوي على خلوة تحت الأرض تسمى خلوة سيدي عبد الرحمان.

كان الصوفية ينقطعون في الخلوات التي أعدت للعبادة والانقطاع عن الناس، ولم تقتصر خلوة الصوفية فقط على الزوايا ومساجد الأضرحة، بل تعدتها إلى أماكن مقطوعة بعيدة عن الناس، مثل ما يفعل الولي المتصوف سيدي عبد السلام المشيشي الذي استقر بتكوت بجبال الأوراس الذي ينقطع إلى سفح (المالو) مقابل دشرة تكوت القديمة.

6. مسجد أثري على الطريقة المغاربية.

لا يمكن أن تزور القرية الأوراسية عمومًا دون أن يلفك عبق الماضي، ودون أن تشعر بوحدة تجمعها، أينما كان موقع هذه القرية الجغرافي، فكلها تروي تاريخًا واحدًا تقريبًا هو تاريخ تمازجت فيه الحضارة المغاربية مع عناصر الحضارة العربية الإسلامية التي جيء بها زمن الفتح، كما أن المدينة المغاربية عموما تتميز بروحها وبانعكاس قيم أهلها وطبيعة تربتها بشكل واضح، إنها بطاقة هوية. وهندستها تعبر عن أخلاق الإسلام وقيمه الخالدة بشكل جلي، وكدليل على ذلك لا نجد الأصنام والهياكل في فناءات المدينة الإسلامية القديمة، وبالمقابل نجد اهتمامًا كبيرًا بالطبيعة وبالمساحات الخضراء، كما أن الدور يعتمد في بناء جدرانها على بعضها البعض كدليل على التماسك ومتانة علاقات الجوار.

وفي الوقت نفسه تميزت هذه الدور بالتحام جدرانها تأكيدًا على اللحمة القبلية التي تميز سكان المنطقة، ومن خصائص القرى الأوراسية كذلك أن الطابع الإنساني حاضر بقوة ليس فقط عندما يتعلق الأمر بالبيوت والتحامها أو التصاقها ببعضها البعض، بل يتعداه إلى هندسة الشوارع والأزقة، وهذا هو سر ذلك الشعور الذي ينتابنا عندما نكون بداخل إحدى القرى الأوراسية، وتلك الحميمية التي قد يشعر بها الزائر الذي يستطيع أن يتنسم عبق الماضي بين جدرانها التي لا تزال شامخة رغم مرور أكثر من قرن على بنائها.

وإضافة إلى كل هذه الخصائص القرى في الأوراس مثلا بروحها المحلية التي انطبعت في هندستها وفي عادات وتقاليد سكانها، هذه العادات والتقاليد التي تتحدث عن الزمن الماضي بلغة الحاضر دون أن يعلوها الصدأ أو تشتكي من الهرم، فالقرية تبدأ في قاعدتها بالمسجد الذي يتصل عادة بباقي أجزاء القرية بطرق تتفرع من أبوابه وتمتد في أجزاء القرية ذات الاستعمالات المختلفة، وهذه الطرق تكون رفيعة ومخططة لمرور الناس والدواب، وبعضها مسقوف والبعض الآخر مكشوف.

وعلى جوانب الأزقة والشوارع مشارع الماء أو السواقي، ثم المساكن والمدارس القرآنية أو الزوايا، كما أنها توفر الظل وتكون درجة حرارتها أقل من المحيط الخارجي بسبب جدرانها السميكة وسقوفها، وتنتهي بعض الحارات السكنية إلى نهايات مسدودة لتوفير الشعور بالاستقلالية لكل حارة ولتوفير الشعور بالأمان لسكانها ليلا.

وبالنسبة لمسجد سيدي عبد السلام فإنه مسجد مغاربي من الناحية المعمارية، فهيئته وشكله وهندسته تنطق بالروح المغاربية الخالصة، فهذه العمارة المتميزة تلمسها في كل ركن من أركان المسجد، في محرابه ومئذنته المشرفة من علو سامق على مدينة تكوت بكاملها، وقبة الضريح أو مجسم الضريح الذي يخلد ذكرى الولي المتصوف سيدي عبد السلام المشيشي. فهذا المسجد يقص لنا من الناحية المعمارية تاريخا يؤكد الجوانب الاجتماعية للجماعات المحلية التي تواءمت واتحدت وكونت عرش بني بوسليمان.

وهكذا يعتبر مسجد سيدي عبد السلام سجلا لتاريخ المنطقة، إذ اشتركت في بنائه وعمارته جميع فرق عرش بني بوسليمان، وقد بحثنا في كتابات الفرنسيين علنا نستقي شيئا يتعلق بالجوانب الوظيفية لهذا المعلم التاريخي والأثري الذي يعاني الإهمال، أو نجد وثائق أو صور تكشف لنا عن الترميمات والتعديلات التي تعاقبت عليه، أو التحسينات التي شهدها، خاصة وأنه بناء تقليدي وبعناصر طبيعية تقليدية لا يمكن لها أن تقاوم العوامل الطبيعية المختلفة لمدة زمنية

طويلة تتعدى قرن من الزمن. لكننا لم نعثر على شيء من ذلك، فكل ما كتبه الفرنسيون عن المنطقة يتعلق بسوق عيد الخريف، ويتعلق بجوانب أخرى من الحياة الاجتماعية.

لقد تطور فن إنشاء المساجد في كل إقليم في اتجاه محلي ذي طابع إقليمي، ومن هنا فإن الطرز المعمارية التي ابتكرتها الجماعات المحلية في البلدان المغاربية طرز إقليمية، يسود كل منها في ناحية بعينها ويتطور داخل حدودها. ولا يقتصر الأمر على المساجد التي تتواجد في الحواضر والمدن الكبيرة، بل حتى هذه المساجد البسيطة بساطة سكان الأوراس تقتبس من بعضها البعض، وقد تقتبس من مساجد أبعد ما تكون عنها. يقول د. حسين مؤنس في كتابه "المساجد معلقا عن الطرز المعمارية للمساجد: «وقد اقتبست هذه الطرز بعضها من بعض، ولكنها عرفت دائما كيف تحور العناصر المقتبسة وتضمنها طرازها الخاص في نطاق الهيئة العامة للمساجد وعناصرها الأساسية وغير الأساسية».(37)

إن مسجد سيدي عبد السلام بالإضافة إلى كونه معلما أثريا – والدليل على ذلك أن وزارة الثقافة صنفته ضمن قائمة المعالم الأثرية الوطنية– فهو يكشف لنا من الناحية التاريخية أنه كان مركز عبادة ومنارة عرفان، وقد قال لنا أحد الشيوخ الحافظين للقرآن الكريم والمدرسين له أن الجامع – على حد تعبيره – كان بمثابة الجامعة إذ تدرس به كل علوم الدين.

لقد تحول مسجد سيدي عبد السلام اليوم إلى مزار تؤمه النساء خفية يوم الجمعة ليتبركن بمجسم ضريح الولي، ويشعلن الشموع في ركن من أركان المسجد كما تدل على ذلك أثار ذوبان الشمع. وقد قام مؤخرا أحد أبناء العائلة المشيشية الميسور الحال، وبفعل عوامل ثقافية وسياسية تمر بها البلاد في عهد الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، بإحياء زردة سيدي عبد السلام التي تتزامن مع موسم عيد الخريف، وذلك أيام 26 – 27 – 28 –أوت من كل عام، والتي كادت أن تنمحي آثارها من الذاكرة الجماعية لولا اهتمامات بعض الجمعيات الثقافية .

---

[1] يشكل مضيق **(توشنت)** بمنطقة إينوغيسن على سفوع جبال شليا أهم رافد يغذي الوادي الأبيض على مدار السنة، إذ لا تنضب مياهه طيلة السنة بفعل الثلوج التي تكسو قمم جبال شليا، وقمم جبال زلاطو.

[2] ويشكل مضيق **برباثة بمنطقة بوحمار** أهم رافد يغذي وادي تمقاد بفعل ذوبان الثلوج التي تكسو في الشتاء قمم جبال المحمل على مستوى تزوكت وعين الطين.

[3] محمد الهادي الجويلي: **مجتمعات للذاكرة مجتمعات للنسيان دراسة مونوغرافية لأقلية سوداء بالجنوب التونسي**، فراس للنشر– تونس، سنة 1994، ص 60.

[4] عبد الله حمودي: **الأنثروبولوجيا والتاريخ (حالة المغرب العربي)**، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة 01، سنة 1988، ص 39

[5] Delartigue, **Monographie de l'Aurès**, Du 3° Zouaves, Constantine 1904, pp172-175.

[6] الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي: **المطرب بمشاهير أولياء المغرب**، دار الأمان للنشر والتوزيع، شركة دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة 04، بيروت – لبنان، ص 90.

[7] لا يعرف على وجه التحديد تاريخ ولادة **سيدي عبد السلام**. ويرى بعض المؤرخين من الشرفاء العلميين وغيرهم أنه ولد سنة 559 أو 563 هـ الموافق لـ: 1163 أو 1167 م وتوفي سنة 626 هـ الموافق لـ: 1228 م.

[8] أنظر كتاب: **مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب**، لسماحة العلامة المؤلف الناشر الشيخ بلهاشمي بن بكار مفتي حاضرة معسكر– الجزائر، مطبعة ابن خلدون– تلمسان– سنة 1961.

- أنظر كذلك كتاب: **الحصن المتين للشرفاء أولاد مولاي عبد السلام مع أبناء عمهم العلميين**، النسابة الحاج الطاهر بن عبد السلام الهيوي الوهابي العلمي الإدريسي الحسني الشمسي.

[9] أنظر: **أنثروبولوجيا التراث**، البشير العربي (مرجع سابق).

[10] الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي: **المطرب بمشاهير أولياء المغرب**، مرجع سابق، ص 96.

[11]محمد نجيب بوطالب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، سلسلة أطروحات الدكتوراه (41)**، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة (01)، بيروت –لبنان، ص 20.

[12] نقلا عن الأستاذ: مزهودي مسعود، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر – باتنة.

[13] **المرابطون:** جمع مرابط، لفظ مأخوذ من الرباط وهو مكان ينفرد فيه المسلمون للعبادة والتأهب للجهاد. فهو بذلك بيت دين وحرب وقد ذكر الرباط في قوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» سورة الأنفال، الآية (60). وقوله: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» سورة آل عمران، الآية (200). والرباط من فعل رابط أي لازم. وفي نفس الوقت له علاقة وطيدة بالدولة المرابطية التي تنحدر من قبيلة لمتونة من بربر صنهاجة في المغرب الأقصى، حكموا بلاد المغرب العربي زهاء 120 سنة، كانوا مثال في الشجاعة والشهامة ومنهم يوسف بن تاشفين الذي استنجد به ملوك الطوائف في الأندلس ضد ألفونس السادس حاكم قشتالة عام (484 هـ – 1091 م)، وقد سمي المرابطين بهذا الإسم لقصة حدثت لزعيمهم الروحي الأول يحيى بن ابراهيم الذي عاد من تونس بفقيه هو عبد الله بن ياس ليعلم قبيلته صنهاجة لكن الموت داهم يحيى بن ابراهيم فتفرق الناس عن الفقيه لكن ذلك لم يضعف عزيمته واعتزل الناس في رباطه، لذلك سمي كل من لحق به مرابطا. أنظر جريدة الأخبار عدد 305، لسنقوقة، بعنوان المرابطون في الجزائر، 2004/04/07، ص 17.

[14] صلاح مؤيد: **الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، تاريخها ونشاطها**، دار البراق بيروت – لبنان، سنة 2002، ص 301.

[15] أعميراوي أحميدة: **من الملتقيات التاريخية الجزائرية**، ط2، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة– الجزائر، سنة 2007، ص 25.

[16] فيلالي المختار الطاهر: **نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني**، ط 01، دار الفن للطباعة، باتنة – الجزائر، سنة 1976، ص 27.

[17] ادوارد دونفو: **الإخوان دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر**، ترجمة كمال فيلالي، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، سنة 2003، ص 26.

[18] صلاح مؤبد: **الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر**، مرجع سابق، ص 302.

[19] فيلالي المختار: **نشأة المرابطين**، مرجع سابق، ص 34.

[20] ليليا بن سالم وآخرون: **الأنثروبولوجيا ةالتاريخ (حالة المغرب العربي)**، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، الطبعة 01، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء– المغرب، 1988، ص 36.

[21] أرنيست غيلنر: **المغرب مرآة للإنسان**، ترجمة أبو بكر باقادر، مجلة الإجتهاد، العدد 47–48، دار الإجتهاد – بيروت – لبنان، سنة 2000، ص 190.

[22] النعم جمع نعمة وهي الحبوب الجافة التي تنتج محليا خاصة في المناطق التلية الشمالية مثل القمح والشعير والذرة تسمى بالنعمة أو (النَعْمَثْ) عندما تخضع الكلمة العربية لقواعد النطق المحلي.

[23] Germaine Tillion, Il était une fois l'ethnographie, écitions du seuil, Paris vi[e], 2000, pp 177-179

[24] Germaine Tillion, **Il était une fois l'ethnographie**, écitions du seuil, Paris vi[e], 2000, pp 177-179

[25] E. Masquerey: DOC, **Hist, Receoillis dans L'Aurès in Revue Africaine**, N° 21, 1877, p 97.

[26] G. Tillon: **Les Sociétés berberes dans l'Aurès meridional**, In Africa journal de l'inst, int des langues civ, AFR, Vol XI, 1938, p 42.

[27] Voir le **dictionnaire des symboles (Mytes, Rèves, Coutumes, Gestes…)**, Jean CHEVALIER et Alain GHEERBRANT, éditions Jupiter, Paris, p 374.

[28] أنظر الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي: **المطرب بمشاهير أولياء المغرب**، مرجع سابق.

[29] أنظر كذلك كتاب: **الحصن المتين للشرفاء أولاد مولاي عبد السلام مع أبناء عمهم العلميين**، النسابة الحاج الطاهر بن عبد السلام الهيوي الوهابي العلمي الإدريسي الحسني الشمسي، ص 22.

[30] القبة المتواجدة بساحة بن يوسف قبالة المسجد الذي يحمل نفس الاسم، الشاهد الوحيد على العمارة الدينية المرابطية بمراكش. هذا وللتعبير عن رغبتهم في تطهير المدينة، قام الموحدون بمجرد سيطرتهم عليها بهدم كل معالم سابقيهم المعمارية. تم اكتشاف هذا المبنى خلال الحفريات الأثرية التي أجريت بالموقع من طرف الباحثين مونيي وتيراس سنة 1948 . وقد أظهرت عملية

التنقيب أن هذه القبة كانت تشكل جزءا من مسجد الأمير المرابطي علي بن يوسف الذي هُدم إثر سقوط المدينة في أيدي الموحدين سنة 1130. وتمكننا النقيشة بالخط الكوفي التي تزين قاعدة القبة، رغم تعرضها للتشويه، من قراءة اسم السلطان علي ابن يوسف وهو ما يؤكد بناءها خلال فترة حكم المرابطين.

[31] علي ابن يوسف 1143-1107من ملوك الدولة المرابطية تعرضت الدولة إلى عدة هزائم في عهده على أيدي النصارى في الأندلس تم استولى الموحدون على مملكته في غرب إفريقية منذ 1030

[32] سعيد بنحمادة: **الماء والانسان في الأندلس خلال القرنين 07 و 08 هـ/ 13 و 14 م إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات**، ط 01، دار الطليعة، بيروت – لبنان، سنة 2007، ص 243.

[33] أنظر سعيد بنحمادة: **الماء والانسان في الأندلس، ص 244.**

[34] رورق أحمد بن أحمد بن محمد أبو العباس، **قواعد التصوف**،، الطبعة 03، تحقيق زهري النجار، مكتبة الكليات الأزهرية، سنة 1989، ص 67،68.

[35] القيشاني كمال الدين عبد الرزاق، **اصطلاحات الصوفية**، ط 01، تحقيق محمد كمال إبراهيم جعفر، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1981، ص 161.

[36] الجرجاني علي بن محمد، **التعريفات**، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة 1995، ص 113.

[37] حسن مؤنس: **المساجد**، ، سلسلة عالم المعرفة، رقم 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، سنة 1981، ص 182.